

ثم لم يلبث أولئك الإخوان أن انتشروا في أنحاء إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا، بل أو غلوا في البلاد الإسلامية للتبشير، فقلقوا بين مراكش وتونس ووعظوا أخلاط العامة في موانئ مصر والشام، ولقوا من بعض الجاليات والطوائف المسيحية بتلك البلاد أسوأ مما لقوا من المسلمين. وأراد القديس فرنسيس أن يسهم في هذه الحركة التبشيرية المبكرة، وأن يستعين بوجود الصليبيين في بعض تلك البلاد، أو أن يعينهم هو بلسانه وبيانه وإيمانه، طنا منه أن المعسكرات الصليبية مجامع للتقوى والورع وخدمة الدين. ووصل فرنسيس إلى دمياط، فوجد طوائف الصليبيين بها على غير ما خالهم من الصلاة والحماسة الدينية، كما وجدهم مختلفين حول قبول عروض السلطان الكامل للقاء عن دمياط أو قبول مشروع الزحف من دمياط إلى القاهرة، تحقيقاً لفكرة القضاء على مركز المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين في الشرق. ونصح فرنسيس بقبول عروض السلطان الكامل ولمسالمة حقنا للدماء فلم تلق نصيحته مجيباً، فرحل عن المعسكر الصليبي إلى أطراف معسكر المسلمين. حيث قبض عليه الحرسية دون أن يبدي مقاومة، وهو يتكلم كلاماً لم يفهم أحد منهم عنه شيئاً سوى لفظ "السلطان" يريد بذلك أنه يرغب في المثلول بين يدي الكامل محمد. وأخيراً وجد فرنسيس نفسه في حضرة الكامل وحاشية قليلة من قاداته وتراجمته، فشرح سبب قدومه إليه، واستأذنه أن يعظه ويصف له المسيحية ويدعوه إليها، فأذن له واستمع في دماثة المتمكن من عقيدته المحترم لعقيدة غيره. ولم ينل فرنسيس في موعظته من النبي عليه الصلاة والسلام، مثلما ينال أغلب المحدثين من المبشرين المسيحين حتى العصر الحاضر، بل القاصر على وصف المسيحية وفوائدها عنده، لا مكرماً ولا مجاملة ولا استدراجاً للسلطان الكامل كما ظن بعض المعاصرين، بل اعتقاداً منه - فيما يبدو - أن للأنبياء والرسول حق الاحترام من الناس جميعاً على اختلاف دياناتهم، وأن الفضيلة ليست احتكاراً لدين دون غيره من الأديان.

وليس في هذا تحميل للقديس فرنسيس ما ليس من مستوى العصور الوسطى، فإنه لم يكن في هذه الناحية من نتاج تلك العصور وعقليتها الحرفية الجامدة، بدليل دعوته الصليبيين للسلم دون الحرب، وهو ما لم يدعُ إليه وقتذاك إلا الأقلون من الجانبين، وبدليل قصده السلطان الكامل،

ولم يجادل القديس فرنسيس فيما قال، ولم يستدع أحداً من علمائه لمجادلته، بل الكتفى بالمبالغة في إكرامه. واكتفى القديس فرنسيس بدوره بالإمعان في إطراء السلطان، بعد أن

أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين، وبعد أن طلب إليه إعطاء الإخوان الفرنسيين  
سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس. ثم الستأذن فرنسيس